

بل ان المسألة تتلخص في ان اليهود منذ البدء انصرفوا الى المهن التجارية والمالية واشتغلوا بالوساطات المالية والراباة في المجتمعات الاوربية وبالتدريج اصبح يجمعهم نوع من التكتل الطبقي مصحوب بأحلام دينية وعاطفية (مفهوم التعالي وشعب الله المختار) مما ادى الى انعزالهم عن المجتمعات وحشرهم بالاحياء الخاصة المغلقة (الجحور) «Ghetto» ، وجعلهم عرضة للنقمة من الجماهير المحرومة من جهة وكذلك من الطبقات العليا المحتاجة الى التعامل معهم من جهة اخرى، وكانت هذه النقمة تبلغ أوجها وتتمثل في الاضطهاد والمذابح احيانا خلال مراحل التغير السياسي والاقتصادي بوجه خاص ، فمثلا في سنة ١٨٨١ تعرض اليهود في روسيا لموجة من الاضطهاد الرسمي والشعبي على اثر حادثة اغتيال القيصر ، وعلى الرغم من أن هذه الموجة تمت بتوجيه من الطبقة الحاكمة لغرض امتصاص النقمة الشعبية فان ذلك لم يكن ممكنا لولا ان المجتمع الروسي في أواخر القرن التاسع عشر كان على أبواب مرحلة تطور جديدة من شأنها ان تهز دور الطبقة التجارية اليهودية التي كانت تبني مصلحتها على اساس استغلال اوضاع الظلم والتخلف في المجتمع الروسي(١) .

ويشير تاريخ أوروبا الغربية الى أن اليهود كانوا في طريقهم الى الاندماج ابتداء من عصر النهضة وان هذا الاندماج كاد يكون تاما في القرن التاسع عشر لولا ظهور عوامل جديدة في شرق أوروبا . ويذكر ابراهام ليون انه حين بدأت مرحلة الرأسمالية الصناعية في عصر النهضة كان اليهود يمثلون رأسمالية بدائية تجارية وربوية . ولم يكن بمقدورهم الاحتفاظ بهذا الدور ، واخذوا بالاندماج السريع في مجتمعاتهم ، وادت تطورات الحياة الرأسمالية فيما بعد الى تسهيل هذا الاندماج وعجل نمو الرأسمالية الصناعية في دخول اليهود الى صفوف البرجوازية وفي اندماجهم الثقافي ، وكان الاستيعاب اكبر كلما كان التقدم الاقتصادي اكبر . ففي نهاية القرن الثامن عشر مثلا ، وخلال ثلاثين سنة تحول نصف يهود برلين الى المسيحية ، بينما صدرت تأكيدات مستمرة عن الباقين على اليهودية بانهم لا يشكلون قومية خاصة وانهم (المان ، المان فقط فيما يختص بالقومية) (٢) . ومن المعروف ان يهود ميونيخ رفضوا عقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينتهم خوفا من أن يفسر ذلك بالخروج عن القومية الالمانية .

وقد عملت الثورة الفرنسية والثورات الديمقراطية البرجوازية في أوروبا على ازالة الحواجز التي اقامها الاضطهاد الديني ضد اليهود ، ودخلت اليهودية الغربية مرحلة الاندماج التام ابتداء من القرن التاسع عشر .

ولكن (المسألة اليهودية) لم تختف تماما ، وذلك بسبب الهجرة من أوروبا الشرقية التي كانت قد بدأت تتجاوز مرحلة الاقطاع . ففي مطلع القرن التاسع عشر كانت السيطرة التجارية اليهودية شاملة في أوروبا الشرقية ، وكانت المدن اليهودية الصغيرة منتشرة في كل مكان ، وهي تجمع لتجار صفار وخمارين وصيارفة ووسطاء من جميع الانواع (كومبرادور) . الا ان المجتمع الاقطاعي في أوروبا الشرقية أخذ منذ منتصف القرن التاسع عشر يفسح المجال للملكية الفردية وللإهتمام بالصناعة ، ومع بروز بوادر الرأسمالية الصناعية بدأ دور اليهود الاقتصادي بالتضاؤل ورافقت ذلك موجة من البطالة أدت الى انتشار نفور عام بين اليهود (الالسامية) ، مما دفع بأعداد كبيرة من اليهود الى الهجرة الى أوروبا الغربية .

وبين سنتي ١٨٨١ - ١٩١٤ أي خلال ٣٣ سنة هاجر ٣ ملايين يهودي من أوربه الشرقية الى أوربه الغربية وأميركا ، حسبما يذكر ليون(٢) . وهكذا يتضح ان مفاهيم التعالي والعزلة اليهودية التي كانت تشكل عائقا نسبيا